هذا هو الإسلام

(٧)

مفهوم السُّنن الربانية

د. رمضان خميس زكى

مدرس التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

تقديم: د. محمد عمارة

مكتبة الشروق الدولية

هذا هو الإســـلام

(٧)

مــفــهــوم السُّنن الربانيــة

دراسة في ضوء القرآن الكريم

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - يناير ٢٠٠٦ م

مكتبة الشروق الدولية

٥ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسي - القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ - ٤٥٠١٢٢٩ - ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

هذا هو الإسلام

(٧)

مفهوم السنن الربانية

دراسة فى ضوء القرآن الكريم

د. رمضان خميس زكى

مدرس التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

تقديم : د. محمد عمارة



تمهيد

مقال فى السنن الإلهية

د. محمد عمارة

قبل أكثر من مائة عام، وقف الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م]. وهو يفسر القرآن الكريم ـ وقفات غير مسبوقة أمام الآيات القرآنية التى تتحدث عن سنن الله الحاكمة لعالم الكون المادى . . ولعالم الاجتماع الإنسانى . . وأفاض فى الحديث عن هذه السنن الحاكمة لحركة الكون . . ومسير التاريخ . . وقيام الحضارات وسقوطها . . وأسباب التقدم والتخلف فى الأمم والمجتمعات . . وتداول الازدهار والانحطاط بين الناس . .

ولقد تمنى الإمام محمد عبده ـ يومئذ ـ أن ينشئ المسلمون ـ انطلاقًا من القرآن الكريم ـ علمًا إسلاميًا هو «علم السنن» أو «علم الاجتماع الدينى» كما استخرجوا ـ من القرآن أيضا ـ كل العلوم الشرعية فى حضارة الإسلام .

ولقد أشار الأستاذ الإمام ـ وهو يتحدث عن حاكمية هذه السنن الربانية فى الكون والاجتماع ـ إلى حقيقة فلسفية وعلمية وعقدية بالغة الأهمية، وهى أن حاكمية هذه السنن ـ التى لا تبديل لها ولا تحويل ـ لا تعنى الجبرية التى تجرد الإنسان من حريته واختياره، وتسخره لقوانين هذه السنن . . وإنما تعنى : أن وعى الإنسان بقوانين هذه السنن وقواعد حركتها هو الذى يجعل الإنسان قادرًا على تسخيرها فى الاتجاه الذى يريد . . ذلك أن كل ما فى هذا الكون ـ بما فى ذلك السنن والقوانين ـ هو مُسخَّر من الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ للإنسان الذى استخلفه الله لحمل أمانة عمارة هذه الأرض وفق الشرائع والقوانين التى وضعها الله . .

فاكتشاف السنن، والوعى بقوانين حركتها، هو الذى يحقق سيطرة الإنسان عليها، ويجعله قادراً على مغالبتها وتسخيرها فى اداء الأمانة التى استخلفه الله للنهوض بها.. بينما الغفلة، غفلة هذا الإنسان عن هذه السنن وغيبة وعيه عن قوانين حركتها هو الذى يجعله ضحية لهذه القوانين التى لا تبديل لها ولا تحويل حتى ولو حسنت نوايا هذا الإنسان، وعاش غارقاً فى بحار الأمنيات والأحلام والأدعية والتوسلات!.. وصدق الله العظيم: ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا﴾ [النساء: ١٢٣].

* * *

وغير التميّز بالريادة فى الوعى بالأصول القرآنية لهذا العلم ـ علم السنن الإلهية.. والاجتماع الدينى ـ تميّز الأستاذ الإمام بالإفاضة فى الحديث عن هذه السنن الإلهية وهو يفسر الآيات القرآنية التى أشارت إليها.. حتى لنستطيع أن "نؤلف" من وقفاته فى هذا المقام «مقالاً فى السنن الإلهية» لا نجد له نظيراً عند غيره من العباقرة الذين تصدوا لتفسير القرآن الكريم.. وكيف لا.. وقد وصف الإمام محمد البشير الإبراهيمى [١٣٨٥ هـ ـ ١٨٨٩ ـ ١٩٦٥م] تفسير محمد عبده للقرآن بأنه «المنهاج المعجزة».. والتفسير لمعجزات القرآن.. المنبئ بظهور إمام المفسرين بلا منازع.. الذى كان أبلغ من تكلم فى التفسير بيانا لهدى القرآن، وفهمًا لأسراره، وتوفيقًا بين آيات الله فى القرآن وبين آياته فى الأكوان.. فكان هذا التفسير ـ فيضًا من إلهام الله أجراه على قلب ذلك الإمام وعلى لسانه، بما لم تنطو عليه حنايا عالم ولا صحائف كتاب.. لقد جلا بدروسه فى تفسير كتاب الله عن حقائقه التى حام حولها من سبقه ولم يقع عليها.. فكان آية على أن القرآن لا يُفسَّر إلا بلسانين: لسان العرب ولسان الزمان»[١].

* * *

نعم.. نستطيع أن «نؤلف» مقالاً مختاراً فى علم السنن الإلهية، من الصفحات العديدة التى أفردها الأستاذ الإمام لهذا المبحث، الذى تفرد به من بين العباقرة الذين تميزوا فى تفسير القرآن الكريم..

لقد قال الأستاذ الإمام ـ وهو يفسر قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [آل عمران: ١٣٧]: «إن

إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننًا ، يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علمًا من العلوم المدونة؛ لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه ، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه ، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال ، وبينها العلماء بالتفصيل ، عملاً بإرشاده ، كالتوحيد ، والأصول ، والفقه .

والعلم بسنن الله ـ تعالى ـ من أهم العلوم وأنفعها ، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة ، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها .

ولا يُحتج علينا بعدم تدوين الصحابة لها ، فإن الصحابة لم يدونوا غير هذا العلم من العلوم الشرعية التي وضعت لها الأصول والقواعد ، وفرعت منها الفروع والمسائل . وإنني لا أشك في كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن وعالمين بمراد الله من وراء ذكرها ـ يعني أنهم بما لهم من معرفة أحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم ، ومن التجارب والأخبار في الحرب وغيرها ، وبما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط كانوا يفهمون المراد من سنن الله ـ تعالى ـ ، ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للأمم التي استولوا عليها . وما كانوا عليه من العلم بالتجربة والعمل أنفع من العلم النظري المحض . وكذلك كانت علومهم كلها .

ولما اختلفت حالة العصر اختلافًا احتاجت معه الأمة إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد وغيرهما ، كانت محتاجة أيضًا إلى تدوين هذا العلم ، ولك أن تسميه علم السنن الإلهية ، أو علم الاجتماع ، أو علم السياسة الدينية . سمِّ بما شئت ، فلا حرج في التسمية .

ومعنى الجملة ـ [الآية]: انظروا إلى من تقدمكم من الصالحين والمكذبين ، فإذا أنتم سلكتم سبيل الله فعاقبتكم كعاقبتهم ، وإن سلكتم سبيل المكذبين فعاقبتكم كعاقبتهم . وفي هذا تذكير لمن خالف أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أحد . ففي الآية مجاري أمن ومجاري خوف . فهو على بشارته لهم فيها بالنصر وهلاك عدوهم ، ينذرهم عاقبة الميل عن سنته ، ويبين لهم أنهم إذا ساروا في طريق الضالين من قبلهم فإنهم ينتهون إلى مثل ما انتهوا إليه ، فالآية خبر وتشريع ، وفي طيها وعد ووعيد .

﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [النحل : ٣٦] : أى أن المصارعة بين الحق والباطل قد وقعت من الأمم الماضية ، وكان أهل الحق يغلبون أهل الباطل ويُنصرون عليهم بالصبر والتقوى ، وكان ذلك يجرى بأسباب مطردة ، وعلى طرائق مستقيمة ، يُعلم منها أن صاحب الحق إذا حافظ عليه يُنصر ويرث الأرض ، وأن من ينحرف عنه ويعيث في الأرض فساداً يُخذل وتكون عاقبته الدمار . فسيروا فى الأرض واستقروا ما حل بالأمم ليحصل لكم العلم الصحيح التفصيلى بذلك ، وهو الذى يحصل به اليقين ويترتب عليه العمل .

والسير فى الأرض ، والبحث عن أحوال الماضين ، وتعرّف ما حل بهم هو الذى يوصل إلى معرفة تلك السنن والاعتبار بها كما ينبغى .

نعم ، إن النظر فى التاريخ الذى يشرح ما عرفه الذين ساروا فى الأرض ورأوا آثار الذين خلوا ، يعطى الإنسان من المعرفة ما يهديه إلى تلك السنن ، ويفيده عظة واعتباراً، ولكن دون اعتبار الذى يسير فى الأرض بنفسه ، ويرى الآثار بعينه ، ولذلك أمر بالسير والنظر .

ثم أتبع ذلك بقوله : ﴿هذا بيانٌ للناس وهُدى وموعظةٌ للمتقين﴾ [آل عمران : ١٣٨] .

كأنه يقول : إن كل إنسان له عقل يعتبر به فهو يفهم أن السير فى الأرض يدله على تلك السنن ، ولكن المؤمن المتقى أجدر بفهمها ؛ لأن كتابه أرشده إليها ، وأجدر كذلك بالاهتداء والاتعاظ بها .

إن لسير الناس فى الحياة سنناً يؤدى بعضها إلى الخير والسعادة وبعضها إلى الهلاك والشقاء ، وإن من يتبع تلك السنن فلا بد أن ينتهى إلى غايتها ، سواء كان مؤمناً أو كافراً ، كما قال سيدنا على : «إن هؤلاء قد انتصروا باجتماعهم على باطلهم ، وخُذلتم بتفرقكم عن حقكم ...» .

* ومن هذه السنن : أن اجتماع الناس وتواصلهم وتعاونهم على طلب مصلحة من مصالحهم يكون، مع الثبات، من أسباب نجاحهم ووصولهم إلى مقصدهم ، سواء كان ما اجتمعوا عليه حقاً أم باطلاً ، وإنما يصلون إلى مقصدهم بشىء من الحق والخير ، ويكون ما عندهم من الباطل قد ثبت باستناده إلى ما معهم من الحق ، وهو فضيلة

الاجتماع والتعاون والثبات ، فالفضائل لها عماد من الحق . فإذا قام رجل بدعوى باطلة ، ولكن رأى جمهور من الناس أنه محق يدعو إلى شيء نافع ، وأنه يجب نصره، فاجتمعوا عليه ونصروه ، وثبتوا على ذلك ، فإنهم ينجحون معه بهذه الصفات. ولكن الغالب أن الباطل لا يدوم ، بل لا يستمر زمنًا طويلاً ؛ لأنه ليس له في الواقع ما يؤيده ، بل له ما يقاومه ، فيكون صاحبه دائماً متزلزلا ، فإذا جاء الحق ووجد أنصاراً يجرون على سنة الاجتماع فى التعاون والتناصر ويؤيدون الداعى إليه بالثبات والتعاون ، فإنه لا يلبث أن يدفع الباطل ، وتكون العاقبة لأهله ، فإن شابت حقهم شائبة من الباطل أو انحرفوا عن سنن الله فى تأييده ، فإن العاقبة تنذرهم بسوء المصير .

فالقرآن يهدينا فى مسائل الحرب والتنازع مع غيرنا إلى أن نعرف أنفسنا وكنه استعدادنا لنكون على بصيرة من حقنا ومن السير على سنن الله فى طلبه وفى حفظه ، وأن نعرف كذلك حال خصمنا ، ونضع الميزان بيننا وبينه ، وإلا كنا غير مهتدين ولا متعظين .

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران : ١٣٩].

كأنه يقول : انظروا فى سنن من قبلكم تجدوا أنه ما اجتمع قوم على حق ، وأحكموا أمرهم وأخذوا أهبتهم وأعدوا لكل أمر عدته ، ولم يظلموا أنفسهم فى العمل لنصرته ، إلا وظفروا بما طلبوا ، وعوضوا عما خسروا ، فحولوا وجوهكم عن جهة ما خسرتم ، وولوها جهة ما يستقبلكم وانهضوا به بالعزيمة والحزم ، مع التوكل على الله ـ عز وجل ـ .

والحزن إنما يكون على فقد ما لا عوض منه ، وإن لكم خير عوض مما فقدتم ، وأنتم الأعلون برجحانكم عليهم فى مجموع الوقعتين ، بدر وأحد ، إذ الذين قتلوا منهم أكثر من الذين قتلوا منكم ، على كثرتهم وقلتكم . .

﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ [آل عمران: ١٤٠] : هذه قاعدة كقاعدة ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ [آل عمران: ١٣٧] ، أى هذه سنة من تلك السنن ، وهى ظاهرة بين الناس ، بصرف النظر عن المحقين والمبطلين .

والمداولة فى الواقع تكون مبنية على أعمال الناس ، فلا تكون الدولة لفريق دون آخر جزافًا ، وإنما تكون لمن عرف أسبابها ورعاها حق رعايتها . أى إذا علمتم أن ذلك سنة فعليكم ألا تهنوا ولا تضعفوا بما أصابكم ؛ لأنكم تعلمون أن الدولة تدول .

والعبارة تومئ إلى شيء مطوى كان معلومًا لهم ، وهو أن لكلٍّ دولة ، فكأنه قال : إذا كانت المداولة منوطة بالأعمال التى تفضى إليها ، فعليكم أن تقوموا بهذه الأعمال وتحكموها أتم إحكام . .

وإن العلم إذا لم يصدقه العمل لا يعتد به . . وإن المسلم ما خلق ليلهو ويلعب ، ولا ليكسل ويتواكل ، ولا لينال الظفر والسيادة بخوارق العادات ، وتبديل سنن الله فى المخلوقات ، بل خُلق ليكون أكثر الناس جدًا فى العمل ، وأشدهم محافظة على النواميس والسنن . . . »[2].

* * *

• السنن الكونية .. والاجتماعية

«لقد كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير «العالم» ، والكون الصغير «الإنسان» ، فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم إنما يجرى أمرها على السنن الإلهية التى قدرها الله فى علمه الأزلى ، لا يغيرها شىء من الطوارئ الجزئية ، غير أنه لا يجوز أن يُغفل شأن الله فيها ، بل ينبغى أن يحيى ذكره عند رؤيتها ، فقد جاء على لسان النبى - صلى الله عليه وسلم - «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يُخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله» . وفيه تصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد ، لا يقضى فيه إلا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها .

ثم أماط اللثام عن حال الإنسان فى النعم التى يتمتع بها الأشخاص أو الأمم ، والمصائب التى يرزؤن بها ، ففصل بين الأمرين فصلاً لا مجال معه للخلط بينهما ، فأما النعم التى يمتع الله بها بعض الأشخاص فى هذه الحياة ، والرزايا التى يُرزأ بها فى نفسه فكثير منها ، كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعة والضعف والفقد ، قد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج ، أو طاعة وعصيان ، وكثيرا ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا ، وكثيرا ما امتحن الله الصالحين من عباده ، وأثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه ، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم فى التسليم بقولهم : ﴿ إنا

[illegible] فلا [illegible] على [illegible] ولا [illegible]
[illegible]
[illegible] على [illegible]
بالإسراف [illegible]
في [illegible] على [illegible]
هو مبيّن في علم آخر .

[illegible] على ذلك [illegible]
من [illegible]
[illegible] كل [illegible]
[illegible]
أصول [illegible]
[illegible]

[illegible] ﴿وإذا أردنا أن نهلك [illegible] ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾ [الإسراء: ١٦] [illegible]
[illegible]
تجد لسنة الله تبديلا﴾ [الأحزاب: ٦٢] [illegible]

[illegible]

• سنن الله في الغنى والفقر بين الأفراد والأمم

[illegible]

[illegible] في [illegible]

[illegible]

[illegible]

وإن لم [illegible] على [illegible] ، فإن الأمة [illegible] فقيرة [illegible] مهينة لا يمكن أن تكون متقية لأسباب [illegible] بالجرى على سنته الحكيمة وشريعته [illegible] ، [illegible] ثروة و[illegible] من حيث لا تحتسب ولا [illegible] ، ولا [illegible] ولا تدري [illegible] زوالها.

• سنن التدافع بين الحق والباطل

وهذا شأن الباطل ، لا [illegible] الحق ، فإن أحكام الباطل مؤقتة لا ثبات لها في ذاتها ، وإنما بقاؤها في نوم الحق عنها ، [illegible] الحق هو ثابت بذاته ، فلا يُغني أنصاره [illegible] معتصمين به ، مجتمعين عليه

[illegible] ١٨٦] . . . إن الله - تعالى - لم يكفل [illegible] ، وإنما يكلفهم الجري على سنته [illegible] ، [illegible] الاستعداد للمدافعة دائما ، وذلك يقتضي بذل [illegible] - صلى الله عليه وسلم - لا تنفع أمة قد خالفت السنن [illegible] ، فهو لا يحميكم مما تقتضيه [illegible]

• سنن الله في إحياء الأمم وإماتتها

[illegible]

[illegible] فمعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكّل بهم [illegible] قوتهم، وأزال استقلال أمتهم، حتى صارت لا تعد أمة، بأن فرّق شملها، وذهبت جامعتها، فكل من بقي من أفرادها خاضعون للغالب ضائعون فيهم، مدغمون في غمارهم، لا وجود لهم في أنفسهم، وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم. ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم.

وسنة الله من رحمة الله - تعالى - في البلاء يصيب الناس [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] العبودية التي تدعو [illegible] إلى [illegible]

منهم باحتمال الظلم، ويبذل [illegible]

الحية، من حفظ سياج الوحدة [illegible]

لذلك فينهضون إلى تدارك ما فات [illegible]

[illegible]

الباقية» أي التي يحيا بها [illegible]

مجموعهم. والحكمة في هذا الخطاب [illegible]

[illegible]

[illegible] كذلك جعل في موتهم من [illegible] جعل [illegible] ولعلهم [illegible] لهم وأمثالهم. كما جعل [illegible] وغيرهم من الأخلاق التي أفسدها الترف والسرف من أسباب ضعف الأمم، وجعل ضعف أمة مغريًا لأمة قوية بالوثوب عليها، والاعتداء على استقلالها، وجعل الاعتداء منبهًا للقوى [illegible] في المعتدى عليه، ومحفزًا له إلى [illegible] وهب لأجله، حتى تحيا الأمة حياة عزيزة، ويظهر فضل الله - تعالى - فيها.

والمراد بالفضل هنا الفضل العام [illegible] فإنه - تعالى - جعل [illegible] على الأمة من الأعداء [illegible]

فلا جرم [illegible] إلى هذا البناء الجديد [illegible]

[illegible]

[illegible] وعلموا أن تخلّي عن مدافعة الأعداء، وتسليم [illegible] هو الموت المحفوف بالخزي والعار، وأن الجهاد [illegible] هي حماية ملّته المحفوظة من عدوان المعتدين، فلا تقصروا في حماية جامعتكم في الملة والدين

• من سنن الاجتماع البشري [illegible] لإملاء للكافرين

[illegible]

[illegible]

[illegible]

في تحدٍّ [illegible] تقصيره في العمل الصالح وتشميره في عمل السيئات، والعبرة بالخواتيم فكأنه قد [illegible] ولهذا الإملاء للكافرين ليس غفلة من الله عنهم، وإنما هو جزء من سنته في الخلق، وهي أن يكون ما يصيب الإنسان من خير وشر هو ثمرة عمله

[illegible]

• سنة التبديل والتغيير

[illegible] نعمة الله من بعد ما [illegible] شديد العقاب ﴾ [البقرة: ٢١١]

وفي الآية عبرة للمخاطبين بالقرآن من المؤمنين به، لا حكاية تاريخية عن بني [illegible] هل يعتبر بها المسلمون [illegible] وهل يفهمون منها أن ملكهم الذي يتقلص ظله عن رؤوسهم عاما بعد عام، وعزهم الذي تتخطفه منهم حوادث الأيام ما سلبهم الله تعالى إلا بعد ما بدلوا نعمته عليهم [illegible] الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [الأنفال: ٥٣]

[illegible]

• السنن الجارية .. والسنن الخارقة

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

خوارق ظاهرة عقلاً، أي التي يتبين لها [illegible] ولا [illegible]، لا [illegible] من وقوعها بقدرة الله ـ تعالى ـ على يد من الأنبياء، ويجب أن نؤمن بها على ظاهرها

ولا [illegible] هذه الآيات من الأهمية [illegible] الله ـ تعالى ـ في الخلق، [illegible] أنها لا [illegible] ولا تتحول، كما قال الله تعالى في كتابه الذي ختم به الوحي على [illegible] الذي ختم به [illegible]، فانتهى بذلك زمن المعجزات، ودخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد، فلم تعد مشاهدة الخوارق هي الداعية إلى الإيمان وتقويته [illegible] سيطرة [illegible] على [illegible] في الفكر والأخلاق والأعمال كما كان في سن الطفولة النوعية، بل أرشده ـ تعالى ـ [illegible] الوحي الأخير [illegible] إلى [illegible] الإيمان بالله وبالوحي ثم [illegible] إرشادات الوحي [illegible] حتى في [illegible] الأدب كما أوضحت ذلك في [رسالة التوحيد]

[illegible] الله ـ تعالى ـ به [illegible] من الآيات لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتق عقولهم إلى البرهان، [illegible] ديننا هو دين العقل والفطرة، وكونه ختم عليه [illegible] بما شهد به [illegible]، من أن سنته ـ تعالى ـ في الخلق لا تبديل لها ولا تحويل

وزعم الذين لا يحبون المعجزات من المتهورين أن عبور بني إسرائيل البحر كان إبان الجزر، فإن في البحر الأحمر زقاقًا إذا كان الجزر الذي عهد هناك شديدًا تيسر للإنسان أن يعبر ماشيًا. ولما اتبعهم فرعون بجنوده ورآهم قد عبروا البحر تأثرهم، وكان المد تفيض ثوائبه - وهي المياه التي تجري عقيب الجزر - فلما نجا بنو إسرائيل كان المد قد غطى وعلا حتى أغرق المصريين.

تحقق إنعام الله على بني إسرائيل يتم بهذا التوفيق لهم والخذلان لعدوهم، ولا ينافي الامتنان به عليهم كونه ليس آية لموسى ﷺ، فإن نعم الله بغير طريق المعجزات أعم وأكثر.

كذا قالوا - [المتهورون .. المنكرون للمعجزات].

ولكن، يدل على كونه آية له - [لموسى] - وصف كل فرق بأنه كالطود العظيم. وإذا تيسر تأويل كل آيات القصة من القرآن فإنه يتعسر تأويل قوله تعالى - في سورة الشعراء - ﴿فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ [الشعراء: ٦٣].

وهو الموافق لما في التوراة..[10]

* * *

﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا﴾ [النساء: ١٢٣].

وإذا طبقنا المسألة على سنة الله التي لا تبديل لها ولا تحويل، علمنا أن مصائب الدنيا تكون جزاء على ما يقصر فيه الناس من السير على سنن الفطرة وطلب الأشياء من أسبابها، واتقاء المضرات باجتناب عللها ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ [الشورى: ٣٠][11]

.. إن القول بنفي الرابطة بين الأسباب والمسببات جدير بأهل دين ورد في كتابه - [الإنجيل]: أن الإيمان وحده كاف في أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل: تحوّل عن مكانك، فيتحول الجبل!.. يليق بأهل دين تُعد الصلاة وحدها، إذا أخلص المصلي فيها، كافية في إقدارة على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العالم العنصري!..

وليس هذا الدين هو الإسلام.

دين الإسلام هو الذى جاء فى كتابة : ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم﴾ [التوبة : ١٠٥] ـ ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ [الأنفال : ٦٠]، ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ [الأحزاب : ٦٢] وأمثالها .

وليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب فى السببية المسببية إلا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله! . . »(١٢) .

* * *

هكذا تحدث الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده عن علم السنن الإلهية ـ علم الاجتماع الإسلامى . . والسياسة الدينية . . فكان أول داعية لتأسيس هذا العلم ، الذى ما زال ينتظر الاجتهادات والإبداعات ، التى تحقق أمنية الأستاذ الإمام ، التى تمناها قبل أكثر من قرن من الزمان ! ولما كان هذا الكتاب الذى نقدم بين يديه ـ [مفهوم السنن الربانية] للدكتور رمضان خميس زكى ـ هو ـ فى حدود ما نعلم ـ من أوفى الدراسات التى عرضت لهذا المبحث . . ومن أدق هذه الدراسات . . حتى إنه ليشى بميلاد كاتب واعد ، وباحث يشق طريقه بجدارة ملحوظة ومتميزة فى حياتنا الفكرية والعلمية . . فلقد آثرنا أن يكون التقديم لهذا الكتاب ـ عن [مفهوم السنن الربانية] ـ ذلك المقال الذى اخترنا فقراته ، وألفنا بينها ، من إبداعات الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . . المؤسس الحقيقى لهذا العلم الإسلامى فى تراثنا الحديث . .

والله نسأل أن ينفع بهذا الكتاب . . وأن يزيد فى العطاء العلمى لكاتبه . . إنه ـ سبحانه وتعالى ـ خير مسئول وأكرم مجيب

د . محمد عمارة

* * *

الهوامش

(١) [آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي] جـ١ ص٣٢٧، ٣٤٣ جـ٢ ص٢٥٢ . جمع وتقديم: د. أحمد طالب الإبراهيمي . طبعة بيروت ـ دار الغرب الإسلامي ـ ١٩٩٧م .

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٥ ص٩٩،١٠٥ . دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ١٩٧٢م .

(٣) المصدر السابق. جـ٣ ص ٤٥٤، ٤٥٣ .

(٤) المصدر السابق. جـ٤ ص ٤٢١، ٥٤٢ .

(٥) المصدر السابق. جـ٥ ص ١٣٠ ، ١٤٧ .

(٦) المصدر السابق. جـ٤ ص ٦٩٦، ٦٩٥، ٦٩٢ .

(٧) المصدر السابق. جـ٥ ص ١٣٨ .

(٨) المصدر السابق. جـ٤ ص ٥٣٧ .

(٩) المصدر السابق. جـ٥ ص ٣١ .

(١٠) المصدر السابق. جـ٤ ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

(١١) المصدر السابق. جـ٥ ص ٢٧٨ .

(١٢) المصدر السابق. جـ٣ ص ٥٠٢ .

***

مفهوم السنن الربانية

• قبل أكثر من مائة عام، دعا حكيم الإسلام الشيخ محمد عبده علماء المسلمين إلى أن يستخرجوا من القرآن الكريم «علم السنن الإلهية» الحاكمة لحركة الكون وسير الاجتماع الإنساني.. وذلك لاكتشاف قوانين التقدم والنهوض.. وأسباب التخلف والانحطاط.. حتى نأخذ بالأولى ونحذر الثانية..

• ومنذ ذلك التاريخ، تبلورت ـ فى الفلسفات الأخرى ـ علوم للاجتماع ـ بروتستانتية.. وليبرالية.. وماركسية.. وفى لاهوت التحرير.. وغيرها كثير.. بينما ظلت الدراسات شحيحة جدًا فى ميدان بلورة علم الاجتماع الإسلامى!..

• وإذا كان الحديث عن صحوة إسلامية.. ومشروع حضارى إسلامى، سيظل حديثًا منقوصًا دون البناء لأسس هذا العلم الإسلامى الهام، فإن هذه الدراسة المتميزة والممتازة التى يحملها هذا الكتاب، هى إسهام كبير فى هذا الميدان..

وهى تعلن عن كاتب ومفكر واعد بالخير الكثير إن شاء الله.

د. محمد عمارة

